الدين الداخل في هذه المسألة والهياج الناشيء عن توقع المحاكمة الآتية — كل هذا يرجح ان كل من سمع وعظ رولاند صار لهُ الملمّ بهذه الحقائق فيكون الحل الطبيعي لذلك ان الشاهدَين عرفا كل ما حدث وتكلما او سمعا غيرهما يتكلم عن المحاكمة فحلما بها فكان حلمهما المزدوج مجرد اتفاق عارض ليس الاَّ

ولا جدال في احتمال الاتفاق في حوادث البشر فقد قال رجلٌ لصديق لهُ في الرابع من شباط (فبراير) سنة ١٨٨٨ « سيقع اليوم ثلج » ولم تكن لهُ من علامة عندهُ قولهُ هذا لكن لم يفترق احدهما عن الآخر حتى اخذ الثلج يقع متكاثفاً فسألهُ صديقهُ كيف عرفت ذلك فاجابهُ انني فقدت وحيدًا لي في مثل هذا اليوم منذ ثلث واربعين سنة وكان ثلج حينئذٍ وهكذا كان في الرابع من شباط كل سنة بعد ذلك ولهذا كنت معتقدًا انهُ سيكون ثلج اليوم ايضاً

وقد عُلم بالاختبار انهُ لم تخلُ سفينة على البحر المحيط من راكبٍ رأى في حلمهِ ان السفينة ستغرق ولكن السفن التي تغرق كل عام قليلة جدًّا بالنسبة الى التي لا تغرق

مشاهد اوربا

١٩

متحف سَوْث كَنسِنْتُن

اخذت القلم لاصف متاحف لندن وفي نيتي ان اجعل وصفها في رسالة واحدة لانني دخلتها ومخيلتي مفعمة بالصور الخيالية . وذاكرتي متحية بما جمعتهُ من متاحف باريس وجنيفا وميلان والبندقية وانا كنت اتخم من فاخر الطعام وصاحب البيت يزيدهُ الوانًا. اوسكر من معتق المدام ولا يزال يترك حانًا ليدخل حانًا . فلم اركل ما مرَّت بهِ ولا انعمت نظري في كل ما رأيتُ لكنني لم اكد اشرع في الوصف حتى تجلَّت لي معانٍ كثيرة لم تخطر في خاطري وانا في تلك المتاحف . ومقدمات ونتائج ارتسمت في ذهني وانا بها غير عارف . مصداقًا لما اثبتهُ بعضهم من ان في النفس مخادع تعي صور المرئيات ولكن الانسان عنها غافلاً وتحفظ ما يلوح في الذهن من المعلومات الى ان تدعو اليها دواعي الحال ولذلك طالت هذه الرسائل اكثر مما قدَّرتُ لها

وقد اشرت سابقًا الى ان من يدخل مدينة لندن من البلاد الشرقية يسوءهُ اللون

الاسود الحالك المتغلّب على مبانيها ويحكم لاول وهلة انهُ سناج الدخان لصق بحجارتها ونقوشها وهي منهُ تتململ كما تتململ الحسناء اذ سوَّد الفحم يديها . لكنهُ اذا اوغل في المدينة وخرج الى الاحياء الجديدة المباني رأى المنازل تتجلى كالعرائس بالحلى الموشاة وفي جملتها دار هذا المتحف والدور العلميَّة المجاورة لها فان اكثرها مبنيٌّ بالاجر البرتقالي الذي طال شواؤهُ حتى صار كالخزف المدهون وتأنَّق المهندسون في رسمهِ والبناؤون في بنائهِ فضاهى القصور المبنيَّة بفاخر المرمر

ومعلوم ان ليس في البلاد الانكليزيَّة وزارة خاصة بالمعارف ولكنَّ فيها ديوانًا يهتم بالتعليم وينفق عليهِ من مال الحكومة بين ثلاثة ملايين واربعة ملايين من الجنيهات كل سنة عدا ما يُنفق عليهِ من مصادر اخرى حتى تبلغ النفقات نحو تسعة ملايين من الجنيهات . وهذهِ الدار من جملة ما يهتم بهِ وهو ينفق عليها نحو نصف مليون من الجنيهات في السنة فلا عجب اذا اتسعت سريعًا وجمعت اثمن التحف واغلاها . وفيها ستة اقسام الاول للنقوش والتماثيل والحلى والجواهر ونحو ذلك من المصنوعات التي يراد بها الزينة والزخرفة . والثاني للصور ولا سيما التي صوَّرها مصورون من الانكليز . والثالث مكتبة للفنون فيها سبعون الف مجلد ومئة وتسعون الف رسم . والرابع مكتبة للعلوم فيها ستة وستون الف مجلد . والخامس مدرسة لتعليم الرسم والنقش والتصوير . والسادس مدرسة لتعليم فن التعليم

والقسم الاول وهو المتحف الحقيقي من اوسع متاحف المسكونة وفيهِ من كل ما ابتدعتهُ مخيّلة الصنَّاع في كل زمان ومكان وما صنعوهُ في الحجارة الكريمة من الالماس الى العقيق وفي المعادن من الذهب الى الحديد وفي الزجاج والعاج والخشب والخزف والحرير والصوف والقطن والكتان فترى فيهِ الحلى على اشكالها وانواعها من التيجان والقلائد والخواتم والاقراط ومن ذوات الجواهر الكبيرة من الالماس والياقوت والزمرد الى ما هو مرصع بقطع زجاجيَّة شبيهة بالجواهر . وممَّا صُنع في الهند والصين واليابان والمكسيك وجزائر البحر الى ما صُنع في مدينة لندن نفسها . وممَّا صنع في عصر الفراعنة واليونان والرومان وقدماء الهنود والاميركيين الى ما صنع في هذا العصر . ويدخل تحت ذلك قدر كبير من الاختام المشهورة والوسامات والنياشين والجواهر الملكيَّة . والمصوغات من الذهب والفضة والنحاس المذهب او المفضض كثيرة جدًّا لا يأخذها حصر وكذلك الآنية الزجاجيَّة والبلورية وفي جملتها اناء كبير من البلور الصخري

صُنع في بلاد الروم في القرن التاسع او العاشر للمسيح وهو قطعة واحدة مجوّفة كأنهُ سبك سبكاً. والظاهر ان القدماء كانوا ابرع من المحدثين في تجويف الاجسام الصلبة فقد شاهدت في ضواحي بيروت جرّة كبيرة مفرغة وهي من الرخام الصلب وعملها دقيق جداً بالنسبة الى جوفها وقد وجدت مدفونة في الارض ولعلها من عصر اليونان او الرومان

اما آنية الخزف فهي واسطة عقد هذا المتحف وبيت قصيدهِ وهي مجموعة من افخر ما صنعهُ اهالي الهند والصين واليابان واليونان والرومان والعرب والاسبانيون والايطاليون والجرمانيون والفرنسويون والانكليز. وقد مضى عليَّ سنون كثيرة ارى الآنية الصينيَّة واعجب من مغالاة الناس بها واجاعهم على استحسان صورها ونقوشها وانا لا ارى فيها صورة جميلة ولا نقشاً بديعاً ولا شيئاً يستوقف النظر لا من حيث الاختراع ولا من حيث مطابقة الصور للاشياء الطبيعيَّة فلما رأيت الآنية المعروضة في هذا المتحف زال العجب والاستغراب وظهر لي كأن الذين نادوا اولاً بجمال الآنية الصينيَّة وفاخروا بها رأوا آنية مثل هذه وكرَّر الذين جاؤوا بعدهم نداءهم بالتقليد والمتابعة سواء رأوا هذه الآنية او لم يروها

والآنية الصينيَّة واليابانيَّة التي في هذا المتحف كثيرة تعدُّ بالالوف واكثرها مثلما يُرى في بقيَّة المتاحف ولكن الجميل منها البالغ حد الاتقان في التصوير والتلوين لم اجد مثلهُ في متحف آخر. وهناك مجموع من الآنية الخزفيَّة اهدتهُ حكومة يابان الى هذا المتحف وفيهِ اناء صنع سنة ٦٤٠ قبل المسيح واناء آخر صنع سنة ٧٣٠ للمسيح وآنية كثيرة من القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر

وفي المتحف آنية من عمل بالسي الخزاف الفرنسوي الشهير ومن معمل مثاقر ومن الآنية التي صنعها العرب في إسبانيا ومصر

اما مصنوعات اليابانيين والصينيين في النحاس والبرنز والحديد فحدِّث عنها ولا حرج ولا سيما النسر الحديدي الذي صنعهُ ميوشن منهارو احد صنَّاع يابان في القرن السادس عشر وهو الذي يقول فيهِ شاعرهم ما ترجمتهُ بالحرف الواحد

لم يقم تحت السماوات امرؤ كميوشن منهارو في الحذاقة

وقس على ذلك مصنوعاتهم في العاج والملك والجلد وسيوفهم وحرابهم ودروعهم وتروسهم واسلحتهم المختلفة فانك ترى منها شيئاً كثيراً معروضاً في خزائن هذا المتحف وكلهُ دالٌّ على حذق الشرقيين وصبرهم وتأنيهم

وهناك سبع خزائن مملوءة اسلحة مجموعة من جميع الممالك ومن ازمنة مختلفة وبعضها مرصع بالجواهر وبينها كثير من السيوف الدمشقيَّة الذائعة الصيت التي نسي الدماشقة صناعتها كما نسوا كثيرًا من صنائع اسلافهم . وكثير من الخواتم المصريَّة واليونانيَّة والاترسكانيَّة والرومانيَّة والاسرائيليَّة ومن خواتم اهالي القرون الوسطى . ومن الساعات والمزاول (الساعات الشمسيَّة) القديمة

والتحف التي في هذا المتحف بعضها اتَّصل اليهِ بالشراء وبعضها بالهديَّة والهبة وبعضها لم يزل لاصحابهِ ولكنهُ معروض فيهِ ليستفيد الناس من رؤيتهِ . والهبات كثيرة ثمينة يقدِّر بعضها بمئات الالوف من الجنيهات . وهذا هو الكرم الذي يفضلنا بهِ الاوربيون . فالذي يهب مجموعًا من الاسلحة قضى العمر في جمعهِ وانفق عليهِ الالوف المؤلفة من الدنانير ورحل لاجلهِ الى الاقطار البعيدة وأحلَّهُ انضل محلٍّ في دارهِ حتى كاد يعبدهُ لا أكرم ممن يتصدَّق بنصف مالهِ ولا سيما اذا لم يتعب في كسبهِ

وفي هذا المتحف كثير من التماثيل والانصاب والنقوش والزخارف ممَّا يكون في المباني العظيمة حول الابواب والكوى او في المذابح والمحاريب او على الاطناف والشرفات وقد أتي بهِ من البلدان التي وُجد فيها لاشتهارهِ بحسن الصناعة . وما لم يمكن نقلهُ من التماثيل والانصاب وبقيَّة المصنوعات صُنع لهُ شبهٌ يمائلهُ من الجبس وصبغ بلونهِ فترى في هذا المتحف شبهًا لعمود تراجان القائم في رومية وهو العمود الذي احتذاهُ بونابرت في سبك عمود فندوم والشبه قائم في المتحف قطعتين كبيرتين كبرجين عظيمين مغطين بالصور البارزة . وقد كنت معجبًا بعمود فندوم فلما رأيت شبه عمود تراجان الذي صنع قبلهُ بالف وسبع مئة عام قلت لم يترك الاول للآخر شيئًا . وترى هناك شبهًا لجانب من قصر الحمراء المشهور بغرناطة ومن الخزانة التي وُجدت في دار منزل بطليطلة . واشباهًا لاكبر التماثيل والانصاب المشهورة بحسن صناعتها كتماثيل آلهة اليونان والرومان وبعض الانصاب الحديثة . وتماثيل الصنَّاع المشهورين كفيدياس النحَّات اليوناني الذي توفي سنة ٤٣٢ قبل المسيح وابلس المصوِّر اليوناني الذي توفي سنة ٣٣٢ قبل المسيح وبيزانو النحَّات الايطالي الذي توفي سنة ١٢٧٣ للمسيح وطرل الصائغ الانكليزي الذي توفي سنة ١٣٠٠ وغوجون النحَّات الفرنسوي الذي توفي سنة ١٥٧٢ ورفائيل ومخائيل انجلو وتشان وغيرهم

وفيهِ اشباه التحف الذهبيَّة والفضيَّة والنحاسيَّة التي في بقيَّة معارض السلطنة الانكليزيَّة او غيرها من المعارض الاوربيَّة وهي مصنوعة بالترسيب الكهربائي

وفيهِ ايضاً كثير من المصنوعات المصريَّة والشاميَّة من الخشب المخروط (المشربيَّة) والمرصع بالصدف والعاج والابنوس ومنها منبر كامل من احد مساجد القاهرة

وبالقرب من هذا المتحف دار كبيرة للمصنوعات الهنديَّة خاصةً وهي آية من آيات الدهر بما جمعت من فاخر الصناعة الهنديَّة وقد طفتُ فيها مرتين وانا اظن نفسي في حلم لا في يقظة فالحلى والجواهر والمصوغات من الذهب والفضة ملقاة في الخزائن كأنها آنية من النحاس والخزف لكثرتها. وفي بعضها من حسن الصناعة ودقة النقش ما لا مثيل لهُ الاَّ بين مصنوعات اليونان والرومان. والآنية النحاسيَّة تفوق الوصف بكثرتها وبديع نقشها وزخرفتها. والمنسوجات الحريريَّة والصوفيَّة والقطنيَّة من افخر انواع الكشمير الى ابسط النسُج القطنيَّة ومن كل ما ينسج في ممالك الهند الواسعة وما جاورها من البلدان الى بلاد فارس منشورةٌ على الجدران او مطويَّة في الخزائن او مخيطة اثواباً تلبسها تماثيل مصنوعة في شكل رجال الهند ونسائهم وهي اما ساذجة او موشَّاة بابهى الالوان ومطرَّزة بالخيوط الذهبيَّة والفضيَّة ومرصعة بالجواهر الكريمة. وهناك شيءٌ كثير من حُلَل الملوك وجواهرهم واسلحتهم وعدد خيلهم من كل ما جادت بهِ قرائح صنَّاع الهند منذ الفي سنة الى الآن. وفي هذه الدار ايضاً اشياءٌ لمباني الهند الشهيرة من القصور والهياكل والمساجد وهي التي رآها كبار المهندسين فقالوا ان صنَّاع الهند ولا سيما المغول منهم فاقوا صنَّاع الارض قاطبة في البناء والنقش ولم يبلغ شأوهم المصريون الاقدمون ولا اليونان ولا القوط ولا احد من الامم الغابرة او الحاضرة

ومما هو حريٌّ بالذكر ان الهدايا التي أُهديت الى دوق يورك نجل ولي عهد ملكة الانكليز والى زوجتهِ معروضة في هذا المتحف بقرب المعرض الهندي وهي شاهد بما للعريس وزوجتهِ من الحب والمكانة في نفوس الامة الانكليزيَّة وملوك الارض وامرائها. والهدايا المعروضة نحو الف وخمس مئة هديَّة وقد تكون الهديَّة منها مهداةً من شخص واحد او من ولاية كبيرة وقد تكون شيئاً واحداً او اشياء كثيرة ورأيت بينها الاكاليل والعقود والقلائد والاساور والخواتم والمراوح والدبابيس والساعات وكلها مرصَّع بافخر الجواهر من الالماس والياقوت والعقيق والزمرد واللؤلؤ وما اشبه وآنية الطعام والشراب والموائد والكراسي والخزائن والمكاتب والكتب والصور والتماثيل والسروج والمركبات ونحو ذلك مما يطول شرحهُ ويتعذَّر عليَّ وصفهُ وهي من الذهب والفضة والعاج والخزف الصيني والبلور والخشب والحرير والجلد. وكل المعارض والمتاحف التي زرتها حتى الآن

كنت ارى فيها الرجال كالنساء او اكثر منهنَّ عدًّا اما معرض هذه الهدايا فاكثر زوّاره من النساء فانني دخلتُ الغرفة الموصلة اليهِ حالما فتح بابها ولم يكن الاَّ كلا حولَ ولا حتى رايتها ازدحمت ببنات حواء وليس بينهنَّ الاَّ نفر قليل من الرجال فشبنا سراعًا امام هدايا الدوق واكثرها من الاثاث والرياش حتى اذا بلغنا الحلى والجواهر المهداة الى زوجتهِ بطُؤَ المسير جدًّا فغصَّ الرواق وكدنا نختنق من الازدحام لان الماشيات امامنا ابين الاَّ ان يمعنَّ نظرهنَّ في كل هديَّة ويعرفنَ اسم مهديها. ولا ادري ماتفعل العروس بكل هذهِ الهدايا ولا سيما ما كان منها من نوع واحد فالمراوح اثنتان وعشرون واكثرها مرصع بالالماس . والخواتم والاساور والقلائد كثيرة ايضًا وهي من ابدع ما صنعهُ الصاغة واثمن ما رصّع بالجوهرة الكريمة ومن ذلك اكليل من الالماس اهدتهُ اليها ولاية سري واكليل وعقد وقرطان وعقدتان اهداها اليها ابوها وامها وهي مرصعة بالالماس والفيروز . وعقد من الالماس واللؤلؤ اهدتهُ اليها ٦٥٠ امرأة من نساء انكلترا . وسوار من الصفير والالماس اهداهُ اليها قيصر الروس وزوجتهُ . والظاهر ان لا اعتبار عندهم لثمن الهديَّة فهدايا بعض الملوك بسيطة رخيصة الثمن وهدايا بعض الرعايا الذين لا القاب لهم ثمينة جدًّا . ومن الهدايا القليلة الثمن الكثيرة المعنى هديَّة من الملكة وولي عهدها وزوجتهِ وهي اناءان صغيران من الفضة ممَّا كان السيَّاح يحملونهُ في سياحتهم دلالة على ان العروسين غريبان وسائحان في هذه الدنيا . وتكثر الكتب الدينيَّة بين الهدايا ولا سيَّما التوراة والانجيل والكتب الاديبَّة ولا سيَّما دواوين الشعراء ومنها يظهر ميل الشعب الانكليزي الى التديُّن والى فنون الادب

٣٠

قصر البلور

كنت احسب ان الملاهي والمتنزهات لا تكثر الاَّ في باريس حيث تميل النفوس الى الخفة والطرب. وان الانكليز ابعد الناس عن ذلك وأميلهم الى العزلة والسكينة لكني لم أقم طويلاً في مدينة لندن حتى رأيت اهليها على غير ما وصفهم الواصفون . نعم انني لم اشاهدهم جلوسًا على ارصفة الشوارع يتماطون كؤوس الراح كما يجلس الفرنسويون على ارصفة البولفارات في باريس لكني رأيت المتنزهات غاصة بهم . ولما دخلتُ قصر البلور رأيت فيهِ الوفًا من كل الطبقات والاعمار يخطرون في اروقتهِ الفسيحة او يأكلون على موائدهِ المبسوطة او يتفحَّصون ما فيهِ من الصور والنقوش والتماثيل او يشنفون

الاسماع بانغام آلاتهِ الموسيقيَّة او يسرحون ويمرحون في حدائقهِ الغنَّاء

والقصر على بضعة اميال من اطراف مدينة لندن ويُسار اليهِ بسكك الحديد بالاجرة طفيفة وتشمل اجرة الدخول الى القصر والرجوع منهُ الى المدينة. وهو على مرتفع من الارض تحيط بهِ رياض باسقة الاشجار وحدائق غنَّاء الخمائل يتدفق الماء من فساقيها ويتصبَّب عن جنادلها جداول عذبة المناهل. وقد كان دارًا للمعرض الذي أُنشئ في مدينة لندن سنة ١٨٥١ في الروض المسمى هيد بارك فابتاعهُ جماعة من وجهاء المدينة ونقلوهُ الى هذا المكان وبنوهُ فيهِ على اسلوب جديد ومواده كلها من الحديد والزجاج وفيهِ من الحديد ما زنتهُ نحو عشرة آلاف طن اي حمل اربعين الف جمل ومن الواح الزجاج ما لو بسط بعضهُ بجانب بعض لغطى ارضًا مساحتها خمسة وعشرون فدانًا. ولو وضعت هذه الالواح بعضها بجانب بعض لوحًا لوحًا لامتدت مسافة مئتين واربعين ميلاً وفي وسطهِ رواق فسيح مقنطر السقف طولهُ نحو خمس مئة متر وعلوهُ نحو خمسة واربعين مترًا. ويمتد من طرفيهِ جناحان على زاويتين قائمتين فيهما برجان يناطحان السحاب ارتفاع كلٍّ منهما نحو سبعة وثمانين مترًا. وقد أُنفق على هذا القصر والروض المحيط بهِ نحو مليون ونصف مليون من الجنيهات

وقد قصدتهُ في يوم اشتد هجيرهُ ونفر الناس من الحر الى ضواحي المدينة زرافات ووحدانًا. فرأيت الطريق على الجانبين مغطاة بالمروج والمنازل وبينها مزارع الراوند وهو عريض الاوراق شديد الخضرة ظننتهُ لاول وهلة بحرًا. ودخلت القصر من جهتهِ الجنوبية بعد ان تدرَّجتُ في حدائقهِ ورأيت اجتماع بدائع الطبيعة والصناعة فيهِ فتنوس الاشجار ونسق الازهار وانشاء السواقي والبرك والجنادل وتمثيل طبقات الارض وما كان فيها من الدواب والتنانين في العصور الخالية ونصب التماثيل البديعة التي ارتسم فيها جمال الهيكل الانساني ارتسامًا لا تشوبهُ ازياء الالباس. ولما بلغت الدرج الوسطى وهي اوسع الادراج الموصلة الى القصر ورأيت تماثيل ابي الهول على جانبيها اخذتني هزة الطرب ووقفت امام تمثال بكستن باني هذا القصر وقد خيل لي ان اشكرهُ على اجلالهِ للصناعة المصرية هذا المحل الرفيع من الاكرام وجعلها زينة لقصر الصنائع والفنون وديدبانًا للداخلين اليهِ

ثم دخلتُ القصر وطفتُ في ارواقهِ وغرفهِ ومقاصيرهِ ولبثتُ خمس ساعات متواليات ماشيًا على رجليَّ شاخصًا الى ما امامي من بدائع الصناعة وفكري تقطع بي العصور الطوال وتوغل في شاسع الاقطار وتطلع على تواريخ الامم الغابرة والحاضرة من اهل مصر

واليونان والرومان والعرب والقوط والانكليز والالمان والطليان وتجوب براري افريقية وحراج الهند ثم تتدرّج الى هذا العصر عصر البخار والكهربائيّة فأرى مصنوعاتهِ مبثوثة امامي معروضة للبيع وبنات الانكليز قائمات للرجال عليكم بخوض البحار واقتحام الاخطار واتركوا لنا البيع والشراء وما مائل من سهل الاعمال ووقفنَ حول موائد البضائع بقدود هيفاء ووجوه حمراء وثياب بيضاء كأنهنّ مثال الطهارة والعفاف. وقد يكون تحت تلك المطارف قلوب مصدوعة ونفوس مكسورة لكنّ الجاني عليها لا يكون الاّ رجلاً مستحلاً للمحرمات والجاني على الجميع نظام المعيشة المتّبع في اكثر الممالك الاوربيّة

وفي القصر دور فسيحة لصناعة البناء والنقش منها دار الصناعة المصريّة من عهدها الى ايام القياصرة ودار الصناعة اليونانيّة من حين كانت في اوج مجدها قبل المسيح باربع مئة سنة الى ان غُلب اليونان على امرهم. ودار الصناعة الرومانيّة من حين تغلبت رومية على بلاد اليونان واستخدمت صناعها الى ان انتشرت الديانة المسيحيّة وخربت الهياكل الوثنيّة وثلّت عروش الاصنام. ودار الصناعة الروميّة (البزنطيّة) من ايام قسطنطين الكبير الى ان اتّسعت فتوحات العرب وتقلص ظلّ الروم. ودار الصناعة العربيّة في بلاد الاندلس. ودور للصناعة الالمانيّة والانكليزيّة والفرنسويّة والايطاليّة في القرون الوسطى. ودار لصناعة اهالي بمباي قبل ان ثار عليها يزوف وطمرها بجمهِ ورمادهِ. ورواق لتماثيل الملوك والملكات الذين حكموا البلاد الانكليزيّة. ومعارض لاشكال الناس من اهالي اسيا وافريقيّة وجزائر البحر. ومعرض للمصنوعات الصينيّة. واشباه اكثر التماثيل القديمة والحديثة. وحياض للحيوانات البحريّة ومعرض للحيوانات البريّة والنباتات الاستوائيّة. ومدرسة للعلوم والفنون ومعامل للمصنوعات. ومعرض للصور. ومكاتب ومخازن وحوانيت الى غير ذلك مما يطول شرحهُ

وفي منتصف الرواق الكبير حلقتان عظيمتان يجلس فيهما الناس لاستماع الانغام الموسيقيّة من المغنين والعازفين تسع كلٌّ منها اربعة آلاف نفس وفي احداها ارغن كبير فيهِ ٤٣٨٤ انبوباً وقد بلغ ثمنهُ تسعة آلاف جنيه وبها مشهد للتمثيل يسع الفي نفس

ويستحيل عليّ ان افي الوصف حقهُ في هذه العجالة لا سيّما وانني لم اقم هناك الاّ ساعات قليلة كما تقدم لكن ما لا يدرك كلهُ لا يترك كلهُ فاكتفي بما يأتي من الوصف الموجز

الدار المصريّة — هي بناء كبير شبيه بالمباني المصريّة القديمة بما فيها من النقوش

والتماثيل وفيها مثال قبر من قبور بني حسن ورواق من هيكل الكرنك وقبر من هيكل ابي سمبل ورواق من هيكل انس الوجود. وجدرانها مغطاة بالكتابات والنقوش المصرية واعمدتها مُورقة التيجان كالاعمدة المصرية حتى ان من يراها كمن رأى هياكل مصر ومدافنها وانصابها وتماثيلها قبل ان تولتها يد الخراب وقرضتها انياب الدهر. وهناك كتابة هيروغليفية مُثِّل بها القلم المصري القديم يقال فيها " انهُ في السنة السابعة عشرة من مُلك فكتوريا ملكة البحار أُنشيء هذا القصر ووضع فيهِ الف تمثال والف نبات الخ ليكون كتاباً يستفيد منهُ الناس من جميع الممالك "

ومعلوم ان الهياكل المصرية ولا سيَّما هيكل الكرنك وهيكل ابي سمبل ضخمة جدًّا يبلغ ارتفاع العمود من عمدها الكثيرة نحو عشرين متراً فيتعذر تمثيلها في هذه الدار ولذلك صُغِّر المثال لكنهُ لم يزل مثل المباني الكبيرة. وقد احسن صانعوهُ في اعادة جميع الالوان التي زالت عن الاعمدة والنقوش المصرية فتراها هنا مزوقة بالوانها الاصلية البديعة

الدار اليونانية — يرى الانسان في الدار المصرية فخامة وزخرفة واشكالاً صُوَرية متَّبعة من قبل ايام رعمسيس الى آخر ايام البطالسة كأنها مقيدة بقيود دينية ونيقة لا حلَّ فيها ولا مناص منها. فاذا دخل الدار اليونانية رأى الجمال والبهجة والسعيَ وراء الاشكال الطبيعية والمباراة في تمثيلها فطريةً بسيطة خالية من كل تصنُّع. فبينا ترى تمثال رعمسيس الكبير واقفاً كالصنم لا معنى في وجههِ غير السكينة ترى تمثال الزهرة (الهة الجمال) في الدار اليونانية متشحًا بالجمال والوقار والدعة والعظمة فانثنائهِ من جهتها وعينها. وبينا ترى النقوش على الجدران والاعمدة المصرية بعيدة عن الطبيعة لجارية على خطة التقليد حتى تكون واحدة في جميع عصورها وعلى اختلاف الامم التي تغلَّبت على هذا القطر ترى النقوش اليونانية تزيد على ما في الطبيعة دقة ورقةً ولا ترتبط بشكل واحد وكأنها شعر رقيق يسحر العقول بمعانيهِ الدقيقة

والتماثيل التي في هذهِ الدار واتمامها كثيرة تفوق الوصف وبينها تمثالان مثل تمثال الزهرة الذي وُجد في جزيرة ملو وهو الآن في قصر اللوفر احدهما يماثلهُ كما كان واقفاً قبل سنة ١٨٧٠ والآخر يماثلهُ كما هو الآن (١)

(١) فان هذا التمثال لما وجد كان مكسوراً قطعتين فوصلها الذي وجدها وأتى بها الى قصر اللوفر وهو كذلك فقال بعض كبار النقاشين ان فيهِ خللاً وخالفهم غيرهم ولم يجسر احد ان يفحصهُ فحصاً دقيقاً كانهم خافوا ان يتطاولوا على آية الجمال. وبقي التمثال على هذهِ الصورة الى ان حوصرت

وفي هذه الدار اسماء شعراء اليونان وصنّاعهم وفلاسفتهم من ايام هوميروس الى ايّام انثيموس باني كنيسة اجيا صوفيا في القسطنطينيّة واسم كلٍّ منهم منقوش بصورة الكتابة التي كانت شائعة في عصره وتماثيل شعراء اليونان مرتبة بحسب ازمنتهم واشباهُ هيأكلهم المشهورة واسماء ابطالهم وحكامهم

الدار الرومانيّة — هنا بلغت الزخرفة حدّها والتأنّق غايتهُ لكنّ صناعة البناء والنقش والتمثيل التي بلغت حدّ الاتقان عند اليونان تحطّت حدود بساطتها عند الرومان وتعدّت دقة معانيها وانصرفت الى ارضاء الاميال والشهوات لأن الرومان لم يقتفوا خطوات اليونان الاّ بعد ان انحطّت الصناعة اليونانيّة من اوج مجدها ولأن الصنّاع اليونانيين الذين استخدمهم الرومان كان جلّ قصدهم ارضاء اسيادهم وابهاج عيونهم فلم يعبأوا باتقان الصناعة لذاتها

وفي هذه الدار مثال لمشهد رومية العظيم المعروف بالكولسيوم Colosseum وهو من افخم المباني ولا يماثلهُ في الفخامة الاّ اهرام مصر لانهُ كان يسع في حلقاتهِ سبعة وثمانين الف نفس. وفيها ايضاً مثال للفورم ومثال للبنثيون وقد صنعت هذه الامثلة في رومية نفسها. ومنها اشباه اكثر التماثيل الرومانيّة كالالهة والملوك والقياصرة. وعمد هذه الدار وجدرانها ملونة بالوان بديعة شبيهة بالمرمر المجزّع ممّا كان الرومان يفاخرون بهِ ويكثرون منهُ في منازلهم

الدار الرومية او البزنطيّة — لما انتشرت الديانة المسيحيّة خرّب اصحابها هياكل الوثنيين وكسروا اصنامهم وامر الامبراطور ثيودوسيوس في اوائل القرن الخامس ان تمحى آثار الصناعة الوثنيّة عن وجهِ الارض وكان الملك قسطنطين قد نقل تخت الملك من روميّة الى بزنطية (القسطنطينيّة) فبنى معابد المسيحيين فيها في شكل دور القضاء الكبيرة في روميّة وهي المعروفة بالباسليقا وخالف بين نقوشها ونقوش الهياكل الوثنيّة فسُمّي هذا الشكل من البناء بزنطيًّا وكان في اول امرهِ بسيطاً ساذجاً ظنًّا بان الزخرفة ضربٌ من المجد الباطل والترف المحرّم فلا تليق بالاتقياء المتعبّدين . الاّ ان الانسان لا يستطيع

باريس سنة ١٨٧٠ فاشفق امناء اللوفر حينئذ ان تقع هذه الدرة اليتيمة في يد الالمان او يسقط قصر اللوفر عليها او يحترق بها فانزلوها عن كرسيها وفصلوها عند اتصالها ولفوها بالصوف ووضعوها في صندوق متين ودفنوها في الارض ثم لما استتب الامن واخذت الثورة واريد نصب التمثال ثانية وُجد ان الذي اوصل جزئيهِ اولاً اخطأ في وضعها فاوصلا على الوضع الاصلي الذي كان فيهِ التمثال فلما كسر فزاد جماله جمالاً

ان يرى الجمال بادياً في كل اعمال الخالق في طير السماء وزهر الحقل وشجر الغاب ويبقى مصرًّا على تحريم الزينة والزخرفة . فزيّنت المباني البزنطيّة بالنقوش الكثيرة وشاعت فيها رسوم الفسيفساء . وبلغت صناعة البناء البزنطي اوج مجدها من القرن السادس الى القرن الحادي عشر ولكنها نفت التماثيل نفياً مطلقاً فانحطت صناعتها في المشرق الى هذا العهد

وهذه الدار تجاه الدار العربيّة الآتي وصفها وفيها امثلة من اشهر المباني البزنطيّة التي في مدائن اوربا ولم ار انها تقلّ جمالاً عن الدار الرومانيّة بل تفضلها من وجوه كثيرة في النقش والزخرفة الاّ ان التماثيل التي فيها لا تقاس بالتماثيل التي في الدار الرومانيّة

الدار العربيّة — وهي تمثّل جانباً من الحمراء التي بناها بنو الاحمر في مدينة غرناطة بالاندلس . وهنا بلغت الالوان ابهاها ودقة النقش اقصاها . والاعمدة في هذه الدار دقيقة نحيفة حتى كأن القناطر فوقها منصوبة في الهواء ومجموع ذلك جميل جدًّا لا انسى تأثيره في نفسي مدى الدهر . لكن تأثير الصناعة البزنطيّة واضح اتمّ الوضوح في النقش والتمثيل فالاشكال الهندسيّة متوالية على نسق واحد كأنها مطبوعة طبعاً لا مرسومة بقلم مصوّر ماهر تتحرك انامله بما توحيه اليه مخيلته والآيات الكريمة مكررة هذا التكرير ايضاً . والاسود الحاملة للفسقيّة في دار الاسود حقيرة كالاعيب الصبيان او تماثيل السكّر التي تباع في موالد مصر ولما وقع نظري عليها غطيت وجهي خجلاً وخطرت في بالي ابيات ابن حمديس الصقلي التي قال فيها

وصراغم سكنت عرين رئاسة ... تركت خزير الماء فيه زئيرها
فكأنما غشي الفضاء جسومها ... واذاب بالفي افواهها البلورها
أسدٌ كأنّ سكونها متحركٌ ... في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكّرت فتكاتها فكأنما ... أقعت على اعقابها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... نارًا وألسنها اللواحس نورا

ثم أعدت النظر اليها وانا اودّ ان يكون الذي نقل هذا الرسم عن الحمراء قد اخطأ في تمثيل الاسود والازهار لانه لا يليق بشعراء الاندلس ان يصفوا اسودًا مثل هذه . ثم عدت الى تذكر رسوم الاسود التي رأيتها على السبل والفساقي في مصر والشام فاذا هي ليست اجمل من هذه ولا اقرب منها الى الطبيعة ولعلّ اللوم في ذلك على صنّاع الروم الذين استخدمهم العرب في البناء والنقش

ولو اردت ان أصف بقيّة الدور لاقتضى وصف كلٍّ منها صفحتين او ثلاثاً لما فيها

من النقوش والتماثيل الدالة على كيفيَّة ارتقاء صناعة البناء وانتقالها من دَوْر الى دور

اما المعارض المختلفة فمن ابدعها معرض الوحوش والطيور وفيهِ اكثر من الف وخمس مئة حيوان من وحوش الارض ودوابها وطيورها كالاسود والنمور والفهود والذئاب والدب والقرود والاناعي والنسور والعقبان وهي مصبرة فيهِ بأوضاعها الطبيعيَّة حينما تكون في القفار تسعى في طلب رزقها ويفترس بعضها بعضاً. وقد وقفتُ في هذا المعرض مدهوشاً من شراسة الحيوان والتفتُّ الى ما حولي مراراً لارى واحداً من جماعة المحامين عنهُ فادعوهُ ليرى ان الطبيعة نفسها قد سلحت الضواري والكواسر وبالانياب البراثن والمخالب والمناسر لكي يفترس بعضها بعضاً ويفتك قويها بضعيفها سنة الله في خلقهِ ولن ترى لسنَّة الله تبديلاً. ولعلها لا تتألم من ذلك لان اعصاب الالم ضعيفة فيها والاَّ لما رأيت حيواناً يأكل طعامهُ وبجانبهِ وحش آخر ينهش لحمهُ. وما يبدو عليها من دلائل الالم انما هو فعل عصبي منعكس سببهُ الخوف والرعب. وقد شاهدت معارض الحيوانات الحيَّة في باريس ولندن لكن الوحوش فيها اسيرة فلما تبدو منها افعالها الطبيعيَّة اما هذه فحالها طبيعيَّة كما تشاهد في القفار والغياض

وفي معرض الصور مئات من الصور التي صوَّرها كبار المصورين الاوربيين ولا سيما المحدثين منهم وهي معروضة هنا للبيع. وطالما سمعت ان الصور تغشُّ احياناً من يراها فيظنها حقيقيَّة لا صوراً ولم يقع ذلك لي الاَّ في هذا المعرض. ويختلف ثمن الصورة من خمس مئة جنيه الى خمسة جنيهات او اقل

وفي القصر معامل لطبع المنسوجات وحفر الخشب وخرط العاج وطلي المعادن وفيهِ مطابع ومكاتب وجرائد واماكن للتصوير والاكل وغير ذلك ممَّا يطول شرحهُ فهو بستان للنزهة ومدرسة للعلم ودار للصناعة وسوق للتجارة ولا عجب اذا فاق ابناء المغرب ابناء المشرق وعندهم مثل هذه الدور والقصور يرون فيها في ساعة ما لا نراهُ نحن مدى الدهر

أ أ

البرج والبارلمنت

لا يدخل غريب مدينة لندن الاَّ ويقصد برجها الشهير ليرى ما فيهِ من الجواهر والنفائس وادوات الحرب والجلاد ومنازل الجور والعقاب حيث سُجن الملوك وقُطعت رؤوس العظماء. وقد دخلتُ هذا البرج في يوم قلَّ زوَّارهُ وشاهدتُ ما فيهِ من الحلى الملكيَّة كتاج الملك تشارلس الثاني وتاج الملكة فكتوريا الذي صُنع لها وقت تتويجها

سنة ١٨٣٨ ويقال ان فيهِ ٢٧٨٣ حجرًا كريمًا من حجارة الالماس وياقوتة كبيرة اهداها دون بدرو ملك قشطيلة الى البطل الشهير الملقب بالبرنس الاسود وهو الذي اسر يوحنا الصالح ملك فرنسا. وهناك تاج زوج الملكة فكتوريا وتاج ابنها ولي العهد وكثير من الصوالج والآنية الذهبيَّة ويقال ان ثمن هذه الحلى ثلاثة ملايين من الجنيهات. وهناك اشكال الوسامات السامية كوسام الحمَّام والحسك ونجمة الهند وما اشبه. وستبقى هذه الهدايا تذكارًا لعصر الزينة والابهة ويقول اولادنا الذين يولدون في عصر النفع حين لا ينفق درهم الَّا على ما بهِ فائدة عقليَّة او ماديَّة تلك مفاخر ابائنا الذين كانوا يباهون بالمعادن اللمَّاعة والحجارة البرَّاقة

ودخلتُ مقاصير الاسلحة وشاهدت ما فيها من عدد الحرب وادوات القتال المجموعة من اقطار المسكونة من اقاصي الهند والصين الى اقاصي اوربا واميركا ومن كل العصور ولا سيما العصور الوسطى التي ارتقت فيها صناعة عمل الدروع والتروس والخوذ والمغافر والقفافيز والجراميق وكان الفرسان يسبغون الحديد على خيولهم كما يسبغونهُ على ابدانهم. ومن يجل نظرهُ في هذه المقاصير وما حوتهُ من انواع الاسلحة التي تعدُّ بالالوف يحكم حكمًا قاطعًا ان ابن آدم لم يتفنن في عمل من الاعمال النافعة او الضارَّة كما تفنن في عدد الحرب. فان الفلاحة وهي اولى المعايش واوسعها وانفعها بقيت على بضع ادوات الوفًا من السنين واما القتال ومنافعهُ لا توازي مضارهُ فتعدُّ ادواتهُ بالوف الالوف. مع ان خيرات الارض لا تجنى الَّا بعرق الجبين واما حياة الانسان فتصرم بطعنة نبلة. ويقال ان همَّ الانسان لم ينصرف عن اتقان اساليب المعيشة والراحة الى التفنن في اساليب الهلاك والدمار الَّا لحكمة اقتضاها ارتقاء النوع

وقد هالني امران لم انتبه اليهما في غير هذا المكان الاول تفنُّن اهالي اوربا في عدد الدفاع في القرون الوسطى وما يتلوها الى ان شاع استعمال البنادق وصار رصاصها يخرق درع الفولاذ. والثاني تفنن اهالي الهند في السيوف والحراب وبقيَّة ادوات القتال وحسبانهم اياها حليًا ترصع بالجواهر وتحلى بالذهب والفضة وكأنهم صرفوا همهم الى ذلك فصار فرسانهم عرائس تتحلى لا كماة يترخصون الحياة. ولا يسع من يحب ابناء نوعهِ الَّا ان يأسف على صرف همتهم الى استنباط ادوات القتال والتفنن فيها وعلى ان هذا الميل لم ينزع من اخواننا الاوربيين بل نراهم الى هذه الساعة يتنافسون باتقان ادوات الهلاك اكثر مما يتنافس المتوحشون

ولا يقتصر هذا البرج على كونهِ خزانة للاسلحة والجواهر بل فيهِ مدفن للذين قيدوا من العرش الى النطع — من اسمى مكان بين امجاد البشر الى مجازر تقشعرُّ من تصورها الابدان. فهناك دفنت الملكة حنة بولين التي قطع رأسها سنة ١٥٣٦ والرئيس كرمول الشهير الذي قطع رأسهُ سنة ١٥٤٠ والملكة كاترينا هورد التي قُطع رأسها سنة ١٥٤٢ ودوق نورثمبرلند الذي قطع رأسهُ سنة ١٥٥٣ ودوق منموث الذي قطع رأسهُ سنة ١٦٨٥ وغيرهم من الامراء. وقد سجن في هذا البرج كثيرون من الملوك والعظماء كيوحنا برليول وداود بروس وكلاهما من ملوك سكتلندا ويوحنا الصالح ملك فرنسا ودوق اورليان ابو الملك لويس الثاني عشر ملك فرنسا وهنري السادس ملك انكلترا

وفي ساحاتهِ كثير من المدافع القديمة منها مدفع نقش عليهِ بالعربيَّة ما نصهُ « أمر بعمل هذه المكحلة سلطان العرب والعجم السلطان سليمان بن السلطان سليم خان عزَّ نصرهُ » وتحت ذلك « عملهُ محمَّد بن حمزة » ومدفع آخر نقش عليهِ انهُ صنع في دار السلام اي بغداد ولكن المترجم اخطأ فهم ذلك فحسب ان معنى دار السلام مكان السلم

والبرج حصن قديم انشئت مبانيهِ في ازمنة مختلفة من ايام وليم الظافر الذي فتح انكلترا وبنى الحصن المعروف بالبرج الابيض سنة ١٠٧٨ الى ايام الملكة فكتوريا المالكة الآن ويمكن اعادتهُ الى الحصار والدفاع اذا اقتضت الحال لان جدرانهُ ثخينة يبلغ ثخن بعضها خمسة امتار وحولهُ خندق عميق يمكن اجراء ماء النهر اليهِ حالاً

اما دار البرلمنت فأكبر المباني التي في مدينة لندن واجملها وقد بنيت بعد سنة ١٨٤٠ لان الدار القديمة أُحرقت سنة ١٨٣٤ . وفيها ايوان كبير قديم بني سنة ١٠٩٧ وأُصلح ووسع سنة ١٣٩٨ وهو ايوان وستمنستر المشهور في تاريخ انكلترا طولهُ ٢٩٠ قدماً وعرضهُ ٦٨ قدماً وعلوهُ ٩٢ قدماً. والحوادث التاريخيَّة التي حدثت في هذا الايوان لم يحدث مثلها في ايوان آخر بالبلاد الانكليزيَّة فقد كان نادياً للبارلمنت الانكليزي القديم ومكاناً لولائم الملوك حين تتويجهم. وفيهِ حُكم على الملك ادورد الثاني والملك رتشرد الثاني باخلاس تاج الملك فخلعا وقتلا وفيهِ حكم على الملك رتشرد الاول بالقتل وحُيِّي كرمول بلقب حامي البلاد وفي اقل من ثماني سنوات شهِّر رأسهُ فوق سطح الايوان وبقي هناك ثلاثين سنة الى ان عصفت بهِ الرياح

وفي دار البارلمنت الف ومئة مقصورة بين كبيرة وصغيرة واحدى عشرة ساحة مكشوفة وثلاثة ابراج عظيمة ارتفاع اعلاها ٣٤ قدماً وارتفاع الثاني ٣١٨ قدماً وفيهِ

ساعة قطر مبناها ٢٣ قدماً اي اكثر من سبعة امتار . وفي هذه الدار من تماثيل الملوك والامراء والوزراء وصور الحوادث التاريخيَّة والنقوش والزخارف ودلائل المجد والابهة ما لا يليق الاَّ بدولة عظيمة كالدولة الانكليزيَّة . وهناك مجلس الاعيان ومجلس النواب كما لا يخفى والاول من اجمل المباني القوطيَّة واكثرها زخرفة وفيهِ عرش الملك والثاني اقل منهُ زخرفة ومجالسهُ اقل من عدد اعضائهِ والدخول اليهِ مباح لكتَّاب الجرائد ولمن بيدهِ جواز من احد الاعضاء . ولقد تردَّدت عليهِ برفقة جناب الفاضل الاستاذ حبيب سلموني نزيل لندن واستاذ الآداب العربيَّة في مدرسة الملك والنادي الامبراطوري وسمعت اعضاءهُ يخطبون ويتذاكرون بين مسهب وموجز ومنهيل ومقتضب وموجب وسالب ورئيس المجلس جالس في صدرهِ تحت سترة تحجب عنهُ اكثر النور النائض من السقف حتى لا يكاد يرى ما يريد قراءتهُ وثلاثة من المسجلين جلوس امامهُ حول مائدة عليها السيف والصولجان وهم باللبس البيضاء العارية بحسب الزي القديم الذي انتسخ الآن من كل اوربا والاعضاء جلوس الاحرار عن يمينهِ والمحافظون عن يساره على اوضاع مختلفة بين منتصب ومتكئ ومصغٍ ومصمٍّ وحاسر ومعتمٍّ ورايتهم يخرجون الى رواقي الاقتراع وعددهم لا يبلغ المئتين مثلاً فتردد اصواتهم زائدةً على مئتين وخمسين اي ان البعض منهم يقترعون ويدخلون بعد الاقتراع وهم لم يسمعوا شيئًا من الخطب والمذاكرات التي دارت على الموضوع المقترَع عليهِ كأنهم نظروا في هذه المسائل قبلاً وقرروا حكمهم فيها اوجاروا حزبهم عليها . وقد اجاد الخطباء الذين سمعتهم غاية الاجادة وكان النقاد بعض المتقدمين دقيقاً وكلامهم بليغاً يدلُّ على واسع اطلاعهم وسرعة خاطرهم ولم اسمع الشيخ غلادستون ولكنني سمعت مورلي وبلفور وتشمبرلن وغيرهم من الزعماء المشهورين والخطباء المصقعين وكان تأثير اقوالهم في نفسي اقل ممَّا انتظرتُ . واراني الآن مقتنعاً انهُ لو قيَّض الله للمشارقة ان يكون لهم مجالس نوَّاب كمجالس الاوربيين لما كانوا دونهم في اصلاح شؤونهم والسيطرة على حكوماتهم . وكأنّي بمعترض من الاوربيين يقول « نحن الذين انشأنا هذه المجالس وشاركنا ملوكنا في ادارة شؤوننا فان كان المشارقة اكفاء لمشاركة ملوكهم فليفعلوا مثلنا » وهنا أُفحم عن الجواب والزمُ الصمت